الأعمال التاريخية
للدكتور يحيى بوعزيز

فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة
واستيلائهم على أوطانها
أو

تاريخ قسنطينة

محمد الصالح بن العنتري

ويليه :

روضة النسرين

في التعريف
بالأشياخ الأربعة المتأخرين

تأليف

الشيخ محمد بن عبد الأنصاري التلمساني

المتوفى سنة 901 هـ

مراجعة وتحقيق

الدكتور يحيى بوعزيز

هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين
بمناسبة الذكرى الخامسة والخمسين لاندلاع الثورة التحريرية المباركة

فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة
واستيلائهم على أوطانها
أو

تاريخ قسنطينة

محمد الصالح بن العنتري

مراجعة وتقديم وتعليق
د. يحيى بوعزيز
جامعة وهران

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

مقـــدمة وتمهيـــد

حظيت مدينة قسنطينة وبايليكها ، باهتمام عدد لا بأس به من الكتاب والمثقفين الذين حاولوا أن يؤرخوا لأحداثها السياسية والعسكرية ، ويدونوا أخبارها القديمة والحديثة ، خاصة العهد التركي . ومن بين هؤلاء أربعة ألفوا كلهم باللغة العربية ، وفي وقت واحد تقريبا ، وهو منتصف القرن التاسع عشر الميلادى وهم :

ـــ الشيخ الحاج أحمد بن المبارك بن العطار الميلي القسنطيني الذى ألف : « كتاب تاريخ قسنطينة » وتحدث فيه بإيجاز عن ماضي المدينة قبل الإسلام ، وأحداث الكاهنة مع الفاتحين المسلمين ، وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن بعض الهجومات التي تعرضت لها قسنطينة وبايليكها مثل :

هجوم السلطان أبي عنان المريني عليها وعلى عنابة في منتصف القرنين 8 هـ و14 م .

وهجوم مراد باي التونسي على قسنطينة عام 1112 هـ (1700 م)

وهجوم حمودة باشا بعده كذلك في القرن 18 م .

وهجوم الشريف باللاحرش الدرقاوى عام 1219 هـ (1805 م)

كما تحدث عن أسباب إنشاء حصن المنصورة ولخص بعد ذلك أحداث البايات : حسين قليان ، وحسين بوحنك ، وحسين باي زرق عينو ، وأحمد باي جد الحاج أحمد باي ، وصالح باي . وأورد ترجمة للشيخ فتح الله ، وذكر بعض أخبار ثورة الباي أحمد القبايلي . وقد قام السيد دورنو بترجمة هذا الكتاب إلى الفرنسية ونشره في المجلة الإفريقية عام 1913[1] كما قام نور الدين عبد القادر بتحقيقه ونشره بالعربية عام 1952 .

ـــ والشيخ صالح بن العنترى الذى ألف كتابا عن بايات قسنطينة سنتعرض له فيما بعد بشيء من التفصيل لأنه موضوع هذه الدراسة .

---

1) Durnon : kitab tarikh qosantina. par el-hadj el-mobark. revue africaine (R.AF) (1913) pp. 256-305

ـ والشيخ محمد البابورى الذى ألّف كتابا عن تاريخ قسنطينة بطلب من شربونو ، عام 1848حسب رواية فايسيت[2] ولم نطلع عليه .

ـ والمترجم المستشرق ليمبرى : limbry الذى ألّف كتابا بالعربية كذلك . عن تاريخ قسنطينة وذكرتُورنو عام 1929 أنه مايزال محفوظاً بأرشيف البلدية[3] .

من هو صالح بن العنترى ؟ .

صالح بن العنترى هو ابن محمد بن العنترى الذى كان يعمل خوجة لدى الحاج أحمد باي ، وأمر بقتله عام 1837 ، أثناء زحف القوات الفرنسية على مدينة قسنطينة خلال الحملة الثانية ، وذلك بوشاية وتحريض من الباش حامبه علي بن عيسى كما سيأتى توضيح ذلك فيما بعد .

ولم يتحدث أحد عن تاريخ ميلاده ، ولا عن تاريخ وفاته . ويبدو أنه ولد بين عامى 1790 و 1800 م ، وتوفى بعد عام 1870 لأنه في هذا العام أنجز كتابه الثانى : سنين القحط والمسغبة ببلد قسنطينة وذلك بطلب من الضابط أدلير رئيس المكتب العربي بالمدينة[4]

كيف تم تأليف كتابه ومتى ؟

فى شهر أوت 1843 تم تعيين الضابط بواسوني : le capitaione boissennet على رأس المكتب العربى بمصلحة الشؤون العربية في مدينة قسنطينة ، من طرف الجنرال بارقي ديليى : Le general baraguay d'hillier فاختار للعمل معه في مكتبه صالح بن العنترى ككاتب ، ولا ندرى بالضبط سبب اختياره ، ولكن يبدو أن سعة ثقافته واطلاعه من جهة ، وحقده على الحاج أحمد باي قاتل أبيه من جهة أخرى ، من ضمن أسباب ترشيحه واختياره لذلك المنصب ، وتلك الوظيفة .

---

2) E. Vaysette : Histoire deconstantine sous la diminution Turque de 1517 à 1837. R.N.M.S.A.C. (constantine — 1867) pp. 241-255.

3) C. Saint—calbre : Constantine et quelques Auteurs Arabe. R.AF. (1913) pp. 70 - 95.

4) حققه ونشره رابح بونار تحت عنوان مجاعات قسنطينة (الجزائر 1974) ص 76 .

ولما كان الضابط بواسونى مستشرقا يحسن العربية ، ويهتم على ما يبدو بالتراث ، وله رغبة في الاطلاع الواسع على ماضى قسنطينة ، وبايليكها في عهد الأتراك ، فقد كلف كاتبه صالح بن العنترى بأن يؤلف له كتابا عن ذلك ، ووضع له منهجا وخطة ، فشرع في العمل دون أن يذكر متى ، ولكن يبدو أنه أواخر عام 1843 ، وانتهى منه أواخر عام 1846 ، على ما يبدو لأنه توقف عند أحداث زيارة ورحيل الدوك دومال للمدينة فى شهري جوان وجويلية 1846 ، وقد سمّاه في المقدمة : « فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها » وفى الخاتمة : « تاريخ قسنطينة » . وطبعه له عام 1846 . حسب رواية فايسيت[5] وعام 1852 حسب رواية دورنو ، الذى قام بترجمته إلى الفرنسية عام 1929 ونشره في مجلة مجموعة ملاحظات ومذكرات الجمعية الأثرية القسنطينية[6]

أسلوب الكتاب ومحتواه :

كتب العنترى كتابه بأسلوب بسيط ، ولغة متواضعة يفهمها الجميع ولكنه أكثر من الأخطاء اللغوية ، وقواعد الرسم ، والنحو ، إذ يرفع المفعول ويجره ، وينصب الفاعل ، ويجمع بين الاسم الظاهر والضمير ، في الفاعل ، على لغة « أكلوه البراغيث » ويأتي بالضاء المشالة بدونها ، وهكذا .

أما محتوى الكتاب فهو عبارة عن سرد مختصر لتاريخ بايات قسنطينة بأسلوب الحوليات ، استعرض فيه الأحداث السياسية والعسكرية والتنظيمات الإدارية لبعض البايات ، واهتم بصورة خاصة بالحروب التي نشبت بين البايليك وتونس ، خلال القرنين 17 و 18 م .

وهناك مجموعة من الملاحظات ممكن إيجازها فيما يلي :

---

5) Premiere essai d'une histoire de constantine (constantine Felix guende imprineur et Lithographe. Place du palais 1846)

6) Dournon: constantine sous les Turcs d'apres salah el antri. R.N.M.S.A.C. constantine 1928—1929) pp 61-178.

أولا : بدأ العنترى التأريخ لبايليك قسنطينة بعام 1050 هـ الموافق لعامي 1640 - 1641 م ، الذى اعتبره التاريخ الحقيقى لدخول الأتراك إلى مدينة قسنطينة . وأول باي أرّخ له هو الباي فرحات ابتداء من عام 1052 .هـ (1642 - 1643م) وأهمل فترة قرن وسبعة وعشرين عاما كاملة من تاريخ البايليك ، وقد يكون معذورا بالنسبة للفترة الغامضة الممتدة بين 1514 و 1567 م ، والتى لا يعرف حكامها وولاتها من الأتراك ، ولكن الفترة التالية لها من 1567 إلى 1647م ، غير معذور فى إهمالها لأن البايليك تكون بصفة رسمية عام 1565م من طرف البايلرباي حسن باشا بن خير الدين ، وحكمه البايات الخمسة : رمضان تشولاق باي (1567-1574م) وجعفر باي (1574-1588 م) ومحمد بن فرحات باي (1588-1608 م) وحسن باي (1608-1622 م) ومراد باي (1622-1647 م) ومن غير شك أن عدم معرفته لأحداثها هو الذى دفعه لإهمالها تمامًا .

ومعلوم أن هناك خلافا بين الباحثين والمؤرخين حول التاريخ الحقيقى لبداية دخول الأتراك إلى مدينة قسنطينة واستقرارهم بها وكل البايليك ، ففايسيت جعله عام1517[7] وميرسي جعله بين عام 1519 و 1522 م[8] ودافيتي جعله عام 1522 م [9] وليبرى جعله عام 1526م [10] والعنترى جعله عام 1050 هـ (1640 م) كما سبق . ونحن نرجح . عام 1514 م الذى تمكن فيه عروج وخير الدين من افتكاك مدينة جيجل من الجنويين والاستقرار بها قبل انتقالهما إلى مدينة الجزائر .

وقد بذل فايسيت جهودا مشكورة في استقراء الكتب ، والمخطوطات ، والرسائل والأختام وغيرها ، من أجل تحديد هذا التاريخ ، وملء الفجوة التي أحدثها العنتري في كتابه ، وتمكن من جمع روايات كثيرة وقارنها ببعضها البعض ، ووضع دراسة لا بأس بها لهذه الفترة ، ولأحداث البايات الذين حكموا خلالها ، وذلك في الجزء الأول من دراسته بمجلد عام 1867 ، في مجلة مجموعة الملاحظات والمذكرات للجمعية الأثرية القسنطينية[11] .

---

7) Vaysettes : IBID (1867) pp: 276-284.

8) Ernest mercier: histoire de constantine (constantine - marle et biron 1903) p. 191

9) Davity: description general de l'Afrique (ED. 1660) p. 205.

10) CH. Feraud: R.AF (1866) p. 191

11) Vaysettes: IBID (1867) pp.241 - 352.

وعليه اعتمدنا نحن في وضع موجز تاريخي عن هذه الفترة كذلك ، صدرنا بها كتاب العنترى ، وأزلنا ذلك البتر ، وتلك الفجوة في انتظار دراسات أخرى جادة ، وعميقة وشاملة .

ثانياً : ليس هناك توازن في تاريخ العنترى ، فكثير من البايات اكتفى فقط بذكر سنة توليتهم ، وسنة انتهائها . ولا يقل عددهم عن سبعة عشر بايا ، والأغلبية أوجز لهم بصفحة ونصف الصفحة والصفحتين ، مثل : علي خوجة ، وحسين بوكمية ، وبوحنك ، وزرق عينو ، وأحمد باي ، وإبراهيم بوصبع ، وعثمان باي ، وحسين باي ، وصالح باي ، ولكنه توسع بصورة خاصة في الحديث عن الحاج أحمد باي آخر البايات ، وعن أحداث الفرنسيين خلال ذلك . واستغرق منه ذلك ما يقرب من ثلثي الكتاب ، وبالضبط 36ورقة من جملة 59 ورقة والتي هي كل الكتاب وصلبه . وقد اتسم تأريخه لأحداث الحاج أحمد باي بالاضطراب والتناقض ، ولم يلتزم التسلسل التاريخي ، فقدم واخر ، وأكثر من هذا اشتد تحامله عليه وعلى الأتراك بصفة عامة ، بكيفية مفرطة ، لا مبرر لها إلا الرغبة في التقرب أكثر من الفرنسيين ، أو ضغط الضابط بواسولي عليه ، كما سنوضح فيما بعد .

ثالثاً : لم يذكر العنترى المصادر التي اعتمدها إطلاقا ، ماعدا بعض الروايات الشفوية التي أشار إليها في المقدمة . وهنا يتساءل المرء من أين له كل تلك الأخبار ، وذلك الحشد من المعلومات التي أوردها ؟ . فإذا كانت حوادث الحاج أحمد باي والفرنسيين معاصرة له وعاشها بنفسه ، فإن أحداث القرنين السابع عشر والثامن عشر بعيدة عنه ، ولابد أنه طالع عدة مصادر ومخطوطات ، وقرأ عدة كتب ورسائل ، لم يتفطن للإشارة إليها ، ولا شك أن دار الفقون زاخرة بعدة مصادر ، نرجح أنه اطلع عليها أو بعضها خاصة وأن حمودة بن الشيخ الفقون كان موظفا مثله ، وعين شيخ البلد منذ احتلال المدينة عام 1837 . هذا إلى جانب عائلات أخرى علمية يحتمل أن يكون قد استفاد من تراثها ويحتمل كذلك أن يكون هو نفسه يملك عدة مصادر .

رابعاً : أورد العنترى في آخر كتابه نص الاتفاق الذي أبرم بين الحاج أحمد باي ، وأعيان مدينة قسنطينة ، عام 1830 ، بعد عودته من الجزائر العاصمة ، وقصيدة شعرية في مدح

قسنطينة ، وأخرى من الشعر الملحون في وصف الحرب التى اندلعت بين البايليك ، وتونس ، ففصلناها عن الكتاب ، وجعلناها ملاحق ، وأضفنا إليها ملحقاً رابعاً أورده الناسخ للكتاب ، المكى بن على بن الفقون ، فى صدر الكتاب ، هو عبارة عن قائمة لبايات قسنطينة بالترتيب ، والحكام الفرنسيين بعدهم حتى عام 1846 م . وفضلنا نحن تأخيره ، كما فعل دورنو . وكذلك أضفنا ملحقا آخر لخصنا فيه أحداث الحاج أحمد باي فى جبال أولاد سلطان ، ونهاية حياته ومطافه حتى وفاته إتماما للفائدة .

خامساً : كل العناوين التي بالكتاب من وضعنا نحن تسهيلاً للقارىء . أما المؤلف والناسخ للكتاب فقد اكتفيا فقط بكتابة البايات أو مفتتح الفقرات بالخط الغليظ إشارة إلى ذلك على ما يبدو . وكذا فهرس الموضوعات ، وقائمة المراجع ذات الصلة بالموضوع وفقرة المدخل ، إلى عام 1643 فمن وضعنا نحن .

سادساً : النسخة الخطية التي قمنا بمراجعتها ، والتعليق عليها ، من نسخ المكي بن علي بن الفقون ، وليس لها أي تاريخ ، وعدد أوراقها إحدى وستون (61) ورقة من حجم 21 x 14 ، مسطرة أفقيا وعرضيا ، عدد أسطر كل منها 32 سطراً وطول السطر المكتوب سبعة صانتيمات في الثلثين الأولين ، وتسعة صانتيمات في الثلث الباقي . غير مرقمة ولكنها مخيطة ومجلدة بسفر غليظ من الورق المقوى ، والمغلف باللون الأحمر . الصفحتان الأولى والثانية كتبت عليهما قائمة أسماء البايات ، والحكام الفرنسيين بعدهم . والصفحة الثالثة سُجِّل عليها الناسخ ملحوظة عدم تسجيله كلام جده في ذم أهل قسنطينة لعدم وجود الورق . والصفحات السبع الأخيرة ، سُجِّل عليها اتفاق الحاج أحمد باي وأعيان قسنطينة ، والقصيدتان الشعريتان .

سابعاً : في هذه النسخة نقص بسيط يتمثل في نسيان الناسخ للجزء الأخير من حياة أحمد باي جد الحاج أحمد باي ، والجزء الأول من حياة صالح باي ، وعندما عدنا إلى نص الترجمة الفرنسية للسيد دورنو ، وجدنا ذلك النقص ، واعتمدنا على ما كتبه السيد فايسيت لاستدراك ذلك النقص في الهامش ، لأنه أوسع وأشمل وأوفى مما في النص الأصلى المترجم .

ثامناً : تحامل العنترى كثيرا على الحاج أحمد باي بصفة خاصة ، والأتراك بصفة عامة ، وذلك لثلاثة اعتبارات على ما يبدو :

1) لأن الحاج أحمد باى قتل أباه ، أو تسبب في قتله لمجرد وشاية ، غالب الظن أنها كاذبة من طرف الباش حامية على بن عيسى ، مفادها وملخصها : أن محمد ابن العنترى ، لما ذهب رسولاً من قبل الحاج أحمد باى ، إلى الدوك دونمور ، والماريشال دامريمون ، قائدى القوات الفرنسية في الدرعان قرب قالمة ، في أكتوبر 1837 م ، تلقى رشوة منهما ليشيع بين الناس ، أن القوات الفرنسية كثيرة العدة والعدد ، ولا قبل لقوات الحاج أحمد بمواجهتها ، وبذلك يحطم معنوياتهم ، ويدفعهم إلى الاستسلام دون قتال . واقتنع الحاج أحمد بهذه الوشاية ، واعتقل كاتبه ورسوله محمد ابن العنترى ، وبعد ثمانية أيام مات مسموما ، كما ذكر ابنه بعده ، صالح ابن العنترى .

2) لربما يكون رئيسه الضابط بواسونى هو الذى أملى عليه هذا الموقف وحرضه على تبنيه مادام هو الذى اقترح عليه تأليف الكتاب نفسه ، ووضع له خطة ومنهجاً ، لم يكن باستطاعته أن يعصي له أمرا أو يخالفه ، لأنه ولي نعمته ، والهدف هو إبراز مساوىء هذا الرجل المقاوم والمعاند ، ومساوىء الأتراك وحكمهم بصفة عامة ، وإبراز محاسن الإدارة الفرنسية الجديدة حتى يتقبلها الناس ويرضوا بها دون مشاكل وصعوبات .

3) وهناك احتمال ثالث جدّ وجيه ، هو أن صالح بن العنترى تطوع بإرادته ليتخذ هذا الموقف ويتبناه حتى يتقرب أكثر من سيده وولي نعمته بواسوني وينال رضاه ، ورضى كل الإداريين الفرنسيين فيبقونه في وظيفته ، ويشملونه بعطفهم ورعايتهم ، وفي كتابه ما يبرر هذا من خلال الأمثلة والشواهد التي نستعرضها فيما يلي :

فعن الحاج أحمد باي قال العنتري إنه في البداية لما تعين حكم بالعدل : « ومن بعد ذلك تبقى حاج أحمد باي في البلاد هذا الوقت أحكامه بالعدل والسداد وعلى نمط الشريعة والرشاد . وقد زال الظلم والجور ، وذهب أصحاب البغي والفجور » . وذكر أنه ذهب إلى الجزائر العاصمة حاملاً الدنوش قبل الأوان ، حتى يحصل على صيت وسمعة ومكانة أكثر من غيره ، وليستأذن من الداى حسين في التخلص من خصومه ، فحصل على موافقته وقام بقتل كل من الأخوين : أولاد بن زكرى ، وأولاد بن نعمون ، وأولاد بن الأبيض ، والشيخ الزواوى ، واستمر على هذه الوضعية المرضية أربع سنوات كاملة .

وبعد الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر عام 1830 ، وعودة الحاج أحمد من هناك ، ثار ضده أتراك البايليك بزعامة محمود بن شاكر ، وعسكروا بالحامة ، ولكن أعيان قسنطينة والشيخ بن الفقون ، وقفوا إلى جانبه ، وساعدوه على الدخول إلى المدينة والقضاء على زعماء الفتنة والتخلص منهم بالقتل .

وتفرغ بعد ذلك لتحصين أسوار المدينة ، وأبوابها استعدادا للأخطار الفرنسية المتوقعة ، وجند عدة فرق من قبائل زواوة ، وواجه تمرد الباي السابق إبراهيم الكريتلي اللاجيء في المدية ، وذلك في أحواز سطيف ، ولاحقه إلى الهضاب العليا والصحراء عندما انسحب إليها ، وقضى هناك ما يقرب من أربعة شهور .

وعندما عاد إلى قسنطينة « ضرب سكة الدراهم ونقش عليهم سكة قسنطينة وتمهد له الوطن ، وصارت أحواله مستقيمة ، وباق في سيرة طيبة ، وأحوال مرضية جيدة ، ينصف المظلوم ، ويقهر الظالم الغيشوم . ومهما يشكل عليه أمر (كذا) ويعزم على قضائه إلا ويشاور أهل العقول فيرشدونه ، ولا زال على هذا المنوال برهة من الزمن . ولما توغل وتمهل له الوطن ، وانقادت له الرعية صارت أحواله غير مرضية ، انعكست حقيقته وتبدلت سيرته » .

وبعد أن استعرض العنترى قضية الحاج عمار بن زفوطة ، وأحداث عنابة مع إبراهيم الكريتلي ، ويوسف المملوك ، عاد مرة أخرى للتعريض ، والنيل من الحاج أحمد باي بأمثلة وشواهد فقال : « وأما حاج أحمد باي ما يحصل بيده إلا ذنوب العباد ، ولا اتصلت بيده تلك البلاد ، وكان من سابق زمانه أنه ما يعمل شيئا إلا بمشورة الناس الكبار ، وأصحاب العقول الفضلاء الأخيار ، فيسهل عليه كل شيء صعيب ، وبدنوا إليه البعيد والقريب ... وصار حاج أحمد باي من بعد قضية عنابة أموره ناقصة غير معتادة . ففي عام 1247 هـ (1830 م) قصد الحضنة فلما وصل إليها استولى على أرزاق ناسها بالظلم والجور ، وشتت شملهم بالبغي والفجور ، ثم رحل وقصد بلد لمدية ... تراه استظهر إليهم بالنصيحة وعاملهم بظاهر المدد ، وحسن السريرة ... فحينئذ استأنسوا لقدومه وتقدموا إليه بالهدايات من الأموال والخيول المسومات ، وطلبوا منه أن يرجع بابا عليهم ... ورجع ولد بومزراق في بلد المدية باي ... وكان حاج أحمد باي بالحيلة مع ناس ذلك الوطن والخديعة . حتى قضى حوائجه ومن بعد ذلك خدعهم وربط

مائة رجل من كبارهم فرفعهم مربوطين وفرّ هاربا من وطنهم فلما وصل إلى قسنطينة قتل ذلك الناس كلهم وفناهم عن آخرهم ، وقد اشتهر ظلمه ، وكثر جوره وبغيه ، وصار يقتل الناس ظلما وعدوانا ، ويخدع بالأمان فقتل ستين فارسا من أولاد متله فى يوم واحد ، ومائة رجل من أولاد أعمر بالحضنة في يوم واحد » .

وفي عام 1251 هـ (1835 م) غزا إحدى مناطق الأوراس واعتقل ستين رجلا من أولاد سعيد ، وقطع لهم أيديهم اليمنى ، وأرسلها إلى قسنطينة ، وفى عام 1836 م كتب أعيان مدينة قسنطينة رسالة إلى يوسف المملوك ، حسب رواية العنترى طبعا ، بعنابة التى كان يحكمها تحت سيطرة الفرنسين ، وطلبوا منه أن يشن هجوما على قسنطينة ، ووعده بأن يساعدوه على اقتحامها واحتلالها . ومن هؤلاء حسب رواية العنترى دائما : أحمد الشريف شيخ ريغه ، وفرحات بن سعيد ، والأخضر بن سليمان من دائرة واد بوصلاح ، وأولاد بن يلس ، وأولاد فايت ، ومحمد بن سحنون من الزمول ، وأولاد مقورة بن عاشور ، وفرحات بن عولمي من أولاد عبد النور ، ومحمود بن الطيب العساسي من أولاد عبد النور كذلك ، والبعض من مشايخ أمية . وعندما فشلت الخطة وانهزمت الحملة الفرنسية الأولى على قسنطينة كتب هؤلاء الأعيان رسالة اعتذار إلى يوسف المملوك وهم : الشيخ بن الفقون ، ومحمد البجاوى قائد الدار ، والحاج المكى بن زفوطة ، وعمر القشي ، وعلي بن حجوج ، والحسين بن سليمان التاجر ، والمرابط العربي ، ومحمد بن العنترى الذى تولى بنفسه كتابة الرسالة كما ذكر ذلك في كتابه .

وعندما عاد الحاج أحمد إلى قسنطينة بعد انسحاب الفرنسيين ، واكتشف خيوط المؤمراة ، اعتقل المرابط العربي ، والحسين بن سليمان التاجر ، « وتجرىء على قتلهم ظلماً وعناداً ، وزعم أنهم من أصحاب الفساد وأنهم كانوا اتفقوا وأرادوا أن يدخل الفرنسيين إلى البلاد » وقد تدخل الشيخ بن الفقون لديه ، وحذره من مغبة استمراره في قتل الناس ، فتوقف عن ذلك مدة من الزمن . وهذا لربما هو السبب الذى جعل باقي أفراد خطة التآمر ينجون من القتل ، ومنهم محمد بن العنترى كاتب الرسالة . ويحتمل أن تكون آثار هذه المؤامرة هي التي شجعت الحاج أحمد باي على قتله في العام الموالي .

ففي خلال استعدادات الفرنسيين لإنجاز الحملة العسكرية الثانية على مدينة قسنطينة خلال خريف 1837 ، أخذ الحاج أحمد باي يستعد هو الآخر وجهز عدة كتائب وأرسلها إلى جهات فالمة لتعترض القوات الفرنسية وتناوشها بقيادة الآغا بلحملاوى وبوزيان العلمي ، وأرسل إليه الفرنسيون اليهودى ولد بوجناح ، ليختبروه ويعرضوا عليه شروطهم . وجرت بينه وبينهم عدة مراجعات انتهت كلها بالفشل . وذكر العنترى هنا : « أن ولد فرانصة والماريشال المذكور يتكلمون معه بطريق الريفلة الفرانصوية وهو يتكلم معهم العادة العربية فلم ينتج شيء » .

وهذه إحدى أساليب العنترى في التعريض بالحاج أحمد باي ، والنيل منه ، كلما وجد الفرصة لذلك . وتجاوزه حتى إلى الحط من الجنس العربي المسلم ككل وهو منه . كل ذلك من أجل إبراز حقده ، والتقرب أكثر من أسياده الفرنسيين .

وحتى يتأكد الحاج أحمد من مدى قوة وضخامة الحملة الفرنسية ، والتعرف على إمكانياتها المادية والبشرية ، أرسل كاتبه الخوجة محمد بن العنترى رسولاً من قبله إلى قائدى الحملة الفرنسية : الدوك دونمور ، والماريشال دانريمون ، ليتفاوض معهما ويبلغ شروطه إليهما ، ويتعرف عن قرب ، ودون وساطة اليهود ، على شروطهما وعروضهما للصلح ، إن كانت هناك شروط للصلح وليس للاستسلام .

وعندما وصل محمد بن العنترى إليهما استقبلاه وسمعا منه ، وسمع هو منهما . وكانت عروض الحاج أحمد باي للصلح تتلخص في انسحاب الفرنسيين من فالمة ، والدرعان ، وعنابة . ولكن الفرنسيين رفضوا ذلك وصمموا على استعمال القوة لاحتلال قسنطينة ، فعاد العنترى بتلك الأخبار إلى الحاج أحمد باي ، وأبلغه بأن القوات الفرنسية كثيرة العدة والعدد ، فاقتنع بما جاء به من الأخبار ، وكلفه بأن يذهب إلى قسنطينة ليبلغ القادة هناك هذه الأخبار ، حتى يقتنعوا كذلك ، ويشتركوا معه في اتخاذ قرار مناسب للموقف .

أما من جهة ابن البجاوى قائد الدار فإنه صدق كلام العنترى ، واقتنع بخطورة الموقف . وأما الباش حامبه علي بن عيسى ، فإنه استنكر رواياته واتهمه بأخذ رشوة من الفرنسيين ليشيع تلك الأخبار حتى يهزم الناس فيتكاسلوا عن المقاومة ، ويستسلموا

دون قتال للفرنسيين . وقام بإرسال رسالة إلى الحاج أحمد باي فى الموضوع ، فداخله الشك وقام باعتقال محمد بن العنترى في الحين بعد أن عاد إليه . وبعد ثمانية أيام مات مسموما . وهنا قال ابنه صالح بن العنترى : « ولما مات رحمه الله تعالى ترك أولاداً منهم العبد الفقير إلى ربّ الأرباب ، محمد الصالح الناسخ لهذا الكتاب ، وإني الآن كاتب بالبيرو بالدّرب . وكان الذى ولاّني القبطان بوسنة المتولي أمور العرب . وأنا أقول إن أبي تكلم الحق ونصح حاج أحمد باي كما ظهر له قبل سماع كلام الشياطين . ولما بلغه كلامهم مكر به وقتله وهذا ظلم عظيم وأنا لا أنساه أبدا ، وأخدم الدولة بنية صالحة لما علمت من حب أبي لها لأنه لو عاش لكان أول من سارع إلى خدمتها بنصح وجد ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة » .

وعندما ضاقت الأمور بالحاج أحمد باي واشتدت ملاحقة القوات الفرنسية وأعوانها ، له وأخذ يتنقل من مكان إلى آخر في جبال الأوراس والحضنة ، شبهه العنترى بناس غرناطة في آخر أيامهم . وقال معرضا به : « لكن صار له مثل ما صار إلى ناس غرناطة حين جاء إليهم الإسبانيول . وكانوا ناسها دائما مشتغلون باللهو ، والطرب ، فحين نزل عليهم جاءهم النذير وقال لهم تيقضوا وأوقفوا على أنفسكم ، فإن الإسبانيول استولى عليهم ، فقالوا حتى نكملوا هذا الشغل ، ثم جاء إليهم مرة ثانية وقال لهم وصل إلى أبواب مدينتكم ، فقالوا له أيضا حتى نكملوا الشغل الآخر ، فما زالوا يفرغوا من شغل ويدخلوا في شغل آخر حتى دخل عليهم الاسبانيول واستولى على وطنهم . كذلك حاج أحمد باي صار يتنقل من وطن إلى آخر حتى وصل إلى جبل أولاد سلطان ، وصار له ما صار من التشتيت والهوان ، حتى نزل ولد سلطان فرانسة على ذلك الجبل كما سنذكره آتيا » .

تباهى العنترى بقدوم الدوك دومال إلى قسنطينة كحاكم جديد عليها ، وعلى الإقليم بكامله أواخر عام 1843 ، وأشاد بخصاله ، وخصال مترجمه جورج طوماس إسماعيل أوربان ، ووصف رحلته إلى باتنه وبسكرة في مطلع عام 1844 م وملاحقته للحاج أحمد باي في جبال أولاد سلطان . ومما قاله عن جبال أولاد سلطان وسكانها : « وهو جبل حصين لكثرة شعابه ، وتصعب طرقاته ، وشجاعة ناسه . وكانوا في زمن الترك لا تنالهم الأحكام ، ولا يعطون مطالب البابليك بالتمام » . واستدرك بعد ذلك ليعود إلى الحديث

والتعريض بالحاج أحمد باي قائلا : « وكان حاج أحمد في هذا الوقت نازل عندهم بخيامه وحريمه فلما نزل عليهم ولد السلطان المذكور تراه صعد إلى جبلهم بالعساكر والسرسور ، وجعل جيوش العرب من وراء الجبل ، ودوروا له الفتن من كل جهة ، فانهزموا أولاد سلطان هزيمة كبيرة ، وانهزم حاج أحمد باي معهم وضاع له رزق كبير ، ومال كثير ، وما نجا إلاّ بنفسه ومات البعض من حريمه في ذلك الهزيمة ، وما حل به ذلك . الا من قلة عقله لما أن جعل رأيه في يد غير العقلاء ، صار به هكذا أو أكثر من ذلك ولو اتبع كلام الناس العقلاء أول الزمان لم تجر عليه هذا الامتحان ، ولكن الأمر مقدر ، ولا ينفع الحذر من القدر » .

وعندما غادر الدوك دومال قسنطينة في زورته الثانية عام 1846 م استأذن منه كل من : علي بن باحمد والأخضر بن وان ، والبوروبى ، وبواخراص بن فانة ، وأحمد ولد مقران ، وأحمد ولد أحمد بن محمد خليفة مجانة ، ومحمد الشاذلي قاضي قسنطينة ، والشيخ الحاج محمد بن الخروبي ، في أن يصاحبوه لزيارة باريس ، فقبل ، ولحقوه فيما بعد وعادوا يحمدون ويسبحون بفضائل فرنسا ، وساستها .

وقد أنهى العنترى كتابه بخاتمة لخص فيها النتيجة التي أراد هو ، أو طُلب منه ، أن يصل إليها ، وهي عقد مفاضلة بين الحكمين : التركي ، والفرنسي ، وإبراز مساوىء الأتراك ومحاسن الفرنسيين ، وتشخيص غدْر الحاج أحمد باي ، فقال وهو يخاطب قارىء كتابه : « إنك إذا تأملت ذلك حق التأمل ، وجدت بين الدولتين في الأحكام والسياسة فرق كبيرا وذلك لأن الأتراك في بدء أمرهم حتى لم يتمكنوا من الوطن كل التمكين عدلوا بين الناس ولم يظلموا أحداً ، وحيث تمكنوا صاروا يظلمون الناس ويسفكون دماءهم ويأخذون أموالهم بغير حق ويعدون ولايوفون ، ويؤمنون ويغدرون ، كما يعلم ذلك مما تقدم . ولم يزل ظلمهم يزداد حتى تم وجاوز الحد ، في ولاية الحاج أحمد باي بن محمد الشريف الذى أخذت قسنطينة زمان ولايته ، فإنه بلغ في الظلم وسفك الدماء وأخذ أموال الناس بالباطل الغاية وأما غدره وعدم الوفاء بوعده ، فأمر معلوم عند كل الناس حتى صار لا يأمنه أحد ولو حلف الأيمان المغلظة كما يعلم فعله مما تقدم . ومن جملة غدره والرجوع عن الوفا بوعده أنه لما أخذ الفرنسيون الجزائر ورجع هو إلى قسنطينة وخاف من قيام الناس عليه وعزله جمع العلماء وأرباب دولته ، وكبراء البلد ، وأعيانهم ،

وقال لهم ما تقولون في أمرى ؟ فقالوا له إذا أردت تبقى حاكما ونبايعك أن تقبل شروطنا وهي : أن تزيل الظلم على الرعية والمغارم السابقة ، ولا تأخذ منهم الزكاة ، والعشور ، لأن الظلم السابق كان سببه الجزائر وهي الآن أخذت فأجابهم إلى ذلك ، وقبل شروطهم وكتبوا في ذلك كتابا ووضعوا فيه خواتمهم شاهدة عليهم وهم : الحاج أحمد نفسه ، ومصطفى بن باش تارزى قاضي الحنفية وأحمد العباسى قاضي المالكية ، ومحمد العربي بن عيسى ناظر الأوقاف ، والشيخ العربى بن الحاج ومصطفى الخليفة وبن البجاوى قائد الدار ، ومحمد بن العربى قائد الزمالة . « وبقي على ذلك مدة قليلة ثم شرع في نقض الشروط حتى أبطلها كلها ، وتمرد في الأحكام حتى إنه لما تكلم معه في ذلك بعض العلماء القاعدين معه للشروط المتقدمة ونهاه عن فعله هم بقتله وبقي على ظلمه وضاق الأمر بالناس ، حتى تمنوا الناس ولاية الفرانسيس وكان الأمر كذلك » .

وبعد أن استعرض العنترى محاسن الفرنسيين ختم كتابه بالفقرة التالية التي تكشف عن مبالغته في التحيز والتجني وقال : « وهذا فرق كبير بين الدولتين ، فإن ظلم الترك ليس مخصوصا بمحل بل هو عام في أرضهم الأصلية ، وفي غيرها ، مما تحت أيديهم كما يعلم ذلك من سافر إليهم ، وشاهد أحكامهم بخلاف الفرانسيس ، فإن أرضه الأصلية أهلها في غاية العافية ، بسبب العدل بينهم وعدم الظلم ، فسار هذا في كل محل تحت أيديهم ، ومن لم يعلم ذلك يسأل العارفين » [12] .

تاسعاً : ورغم كل ما سبق فإن كتاب صالح بن العنترى ، سيبقى وسيظل وثيقة مهمة ، وأساسية بالنسبة لتاريخ قسنطينة وباياتها ، وباليكها وبالنسبة لبعض الأحداث العامة التي تتصل بالجزائر ، وعلاقتها بتونس .

وبما أنه مفقود تماما حتى في المكتبات العامة ، فقد رأينا إعادة طبعه من جديد في إطار إحياء التراث ، وإثراء المكتبة التاريخية الجزائرية الحديثة ، وسارعنا إلى مراجعته ، ووضع التعليقات ، والتوضيحات المطلوبة على ما غمض منه أو كان غاية في الاختصار

---

12) أخذنا هذه الفقرات من كتاب العنترى وسيجدها القارىء عندما يطالعه ويراجعه فيما بعد .

ووضعنا له عناوين داخلية ، وقدمنا له بتمهيد عن الفترة التي أهملها المؤلف ، وفهرسناه ، وزودناه بقائمة من المراجع ذات الصلة بموضوعه تعميما للفائدة ، وذلك في فترة لا تزيد على ثلاثة أشهر من 1/15 إلى 1985/4/10 م[13]

وإذا كان لابد من الشكر فإن أول من يستحق ذلك هو الأخ الزميل الأستاذ مبارك نجاح الذى وضع تحت تصرفنا مخطوط صالح بن العنترى مما أثار فينا رغبة قراءته ومراجعته ، وتهميشه ، ثم الأخ الفاضل عبد المجيد أمير مدير القسم الثقافي بإذاعة وهران الجهوية ، وكاتبه قاسمي الهاشمي ، اللذان أنجزا ضربه على الآلة الكاتبة بدون تأخير مما سمح بتقديمه إلى الطبع دون تأخير كذلك ليصل إلى القارىء والباحث في أقرب فرصة ممكنة ، بعد غياب دام حوالي 140 عاما تقريبا .

والله الموفق .

وهران ـ حي الصادقية
الأربعاء 19 رجب 1405 هـ
10 أبريل 1985 م

د . يحيى بوعزيز
جامعة وهران

---

13) بعد أن انتهينا من إعداد هذه الدراسة للطبع ، وخلال زيارتنا لفلسطينة يوم 21 و 22 و 23 أبريل 1985 لإلقاء محاضرة على طلبة قسم التاريخ وأساتذته علمنا أن الباحث الناشيء سيلوى أحمد قد حقق كتاب العنترى ونالته كدبلوم للدراسات المعمقة منذ ثلاث سنوات ولكنه لم ينشره بعد ، ولا شك أن عمله سيزيد الفترة وضوحا . وقد اتصل بنا الباحث نفسه وحدثنا عن جهوده في ذلك .

مـدخـــل

بايليك قسنطينة على عهد الأتراك

1837 - 1514

الموقع الجغرافي والشكل التضاريسي والمظهر البشري :

يشمل الشرق القسنطيني ، الرقعة الجغرافية الواسعة التي كانت تمثل بايليك الشرق ، أو بايليك قسنطينة ، والتي تمتد من البحر شمالا إلى ما وراء بسكرة وواد سوف ، في حوض ريغ ، وايغرغر جنوبا ، ومن الحدود التونسية شرقا إلى ما وراء إقليم ونوغة وبرج حمزة (البويرة) ، وسفوح جبال جرجرة غربا . ويحتوى هذا الإقليم على جبال البيبان . وحوض وادى الصومام ، وجبال البابور ، وقسنطينة ، وعنابة ، وسوق أهراس ، وعلى السهول العليا القسنطينية وكتلة جبال الأوراس ، والتمامشة ، وتبسة ، وجبال الحضنة ، وحوضها ، وجبال الزاب والزيبان ، وواحات سوف في حوض واد ريغ ، وواحات الصحراء الشمالية الشرقية وعلى رأسها : بسكرة ، وتقرت ، وورقلة ، بل وحتى واحات ميزاب بواد الشبكة .

والشرق القسنطيني بصفة عامة جبلي في معظمه ، من حيث المظهر التضاريسي ، تلتقي في وسطه سلسلتا جبال الأطلس : الشمالية التلية ، والجنوبية الصحراوية عند كتلة جبال الأوراس ، وليس فيه من الأحواض والسهول سوى حوض وادى الصومام ، والسهول العليا القسنطينية ، التي تمثل الجزء الشرقي من إقليم الهضاب العليا الجزائرية إلى جانب منبسطات تبسة ، وحوض واد سوف ، ووادى ريغ ، وسهول عنابة وسكيكدة .

تناله نسبة لا بأس بها من الرطوبة في الشتاء لارتفاعه ، وقربه من جبهة البحر الشمالية المتوسطية ، وذلك في القسم الشمالي ، أما الجنوبي الصحراوى فالجفاف أهم ظاهرة فيه ، ويعتمد على المياه الجوفية أكثر من غيرها . ونسبة كثافة السكان فيه عالية عبر التاريخ إذا ماقورن بوسط البلاد وغربها ، وذلك لظروف تاريخية ، وطبيعية كذلك .

والحياة الاقتصادية فيه تعتمد على الفلاحة وتربية المواشي أساساً ثم النشاط التجاري ، والصناعات التقليدية ، التى كانت تدر على أصحابها مردودوا لا بأس به في القرى

العمرانية الكبيرة وعلى رأسها مدينة قسنطينة[1] .

وفي عهد الأتراك كانت حدود البايليك على الشكل التالي :

من الشمال البحر ابتداء من طبرقة شرق القالة إلى حدود مدينة بجاية التي لم تكن هي وحوض وادى الساحل الغربي يدخلان ضمنه .

ومن الشرق الحدود التونسية التي تبدأ من طبرقة على البحر وتمتد إلى الجنوب عبر تبسة حتى واحات وادى سوف .

ومن الغرب جبال البيبان ، وقرى : بني منصور ، وسفوح جبال جرجرة الشرقية والجنوبية ، إلى برج حمزة ، وقريتي : سيدى هجرس وسيدى عيسى ، اللتين تفصلانه على بايليك التيطري في الجنوب الغربي .

ومن الجنوب الصحراء الكبرى غير المأهولة جنوب واحات وادى سوف ، وتفرت ، ورفلة ، ومزاب .

ويحكمه نائب عن الباشا بالجزائر العاصمة يحمل لقب الباي ، وقسم إداريا إلى أربعة أقسام على كل منها حاكم مستقل عن الآخر يخضع مباشرة للباي بقسنطينة وهي : القسم الشرقي ويشمل مواطن الحنانشة ، ووادي زناتي ، وعامر الشراقة ، ومن أبرز زعمائه الأحرار كبار الحنانشة .

والقسم الشمالي الذى يمتد من عنابة إلى بجاية ، ومن أبرز زعمائه أولاد بن عاشور في فرجيوة ، وأولاد بن عز الدين في الزواغة .

والقسم الغربي ويمتد من سطيف إلى جبال البيبان وقرى بني منصور وونوغة ، ومن أبرز زعمائه أولاد مقران بقلعة بني عباس ومجانة .

والقسم الجنوبي وأهم زعمائه الدواودة ، وأولاد بن فانة .

---

1) عن هذا الموضوع انظر مقالنا : الحالة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الريفي بالشرق الجزائرى خلال القرن التاسع عشر . مجلة الثقافة . عدد 80 (الجزائر — مارس أبريل 1984) ص 159- 186 . وقد ألقيناه في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ المغرب وحضارته الذى انعقد في مركب الأندلس غرب مدينة وهران أيام 26 و 27 و 28 نوفمبر 1983 تحت إشراف ورعاية جامعة وهران .

وسكان البابليك من العرب ، والقبائل ، والشاوية ، تربط بينهم العقيدة الدينية واللغة ، والعادات والتقاليد ، والمصير المشترك كذلك . ويحكمهم قواد وشيوخ يخضعون للباي مباشرة أو بعض خلفائه ، الذين يساعدهم الكتاب والمكحالجية في زمالاتهم . ويبلغ عددهم حوالي 35 شيخا ، وقائدا وحاكما منهم :

1 ــ شيخ الحنانشة وتحته 12 قبيلة .
2 ــ شيخ العرب بالزاب (بسكرة) وتحته ١١ قبيلة من البدو الرحل
3 ــ قائد الحراكته أو القائد العواسي الذى يقيم بمدينة قسنطينة لأهميته ، وتحته 32قبيلة صغيرة تشمل معظم سكان الشاوية .
4 ــ قائد الحنانشة .
5 ــ قائد الزمول ، وهي قبائل عسكرية ، وتحته حوالي 20 قبيلة .
6 ــ قائد الأوراس وتحته 12 قبيلة .
7 ــ قائد عامر الشراقة وتحته 6 قبائل .
8 ــ شيخ الدير أو أولاد يحي بن طالب في جهات تبسة .
9 ــ شيخ بللزمة وتحته 13 قبيلة .
10 ــ قائد أولاد إبراهيم وتحته 11 قبيلة .
11 ــ قائد سكيكدة وتحته 9 قبائل .
12 ــ قائد زارديزا وتحته عدد كبير من سكان القبائل
13 ــ شيخ فرجيوه وتحته 6 قبائل .
14 ــ شيخ الزواغة وتحته 4 قبائل .
15 ــ قائد أولاد عبد النور وتحته 31 قبيلة .
16 ــ قائد أولاد التلاغمة .
17 ــ قائد عامر الغرابة وتحته 5 قبائل .
18 ــ شيخ قصرالطير بريغة .
19 ــ شيخ أولاد مقران بمجانة وتحته 13 قبيلة .
20 ــ قائد أولاد دراج في الحضنة .
21 ــ قائد تبسة .

22 ــ قائد ميلة .

23 ــ قائد مسيلة .

24 ــ قائد زمورة[2] .

ويمكن أن نلخص فيما يلي أجهزة البايليك الإدارية في مدينة قسنطينة وإقليمها التي تطورت بمرور الزمن طبعا . وذلك حسبما جاء في دراسة فايسيت التي اعتمدت بدورها على عدة مصادر ومخطوطات محلية أخرى .

الجهاز الإدارى للبايليك :

تتألف إدارات بايليك قسنطينة من أجهزة إدارية متعددة في المدينة والأطراف يمكن أن نميز منها الأجهزة التالية :

أولاً : ديوان الأوجاق :

ويتألف من رجال المخزن أو أعضاء الحكومة الذين يحيطون بالباي ، ويشاركونه في إدارة البايليك ، ويحتفظون بالسلطات العليا إلى جانبه ، ويتصلون به بصفة مباشرة ، ويشتركون معه في اتخاذ القرارات ، وهم :

1) الخليفة : وهو مسئول عن شؤون الأوطان أو أقاليم البايليك ، ويخضع له القواد ، ورجال الميليشيا المنظمين وينظم عملية استخلاص الضرائب ويتولي إخضاع السكان لحكومة البايليك ، ويذهب مرتين في العام إلى الجزائر العاصمة في الربيع والخريف ، لحمل الدنوش إلى الباشا ، وذلك عند عدم ذهاب الباي بنفسه .

2) قائد الدار : وهو بمثابة شيخ البلدية حالياً ، أغا متقاعد ، مكلف بالإدارة وشرطة المدينة ، ويتموين رجال الميليشيا برواتبهم الشهرية . وتمتد مسئوليته إلى القسم الأكبر من أملاك البايليك وعقاراته ، ومخازن الحبوب ، وأئمة المساجد ، ووعاظها ، والقضاة ، والمفاتي ، الذين عليه أن يدفع لهم أجورهم ، وأرزاقهم المستحقة . وإليه يعود أمر حفظ الأمن بالمدينة .

---

2) E.Vayssettes : Histoire de Constantine sous la domination Turque de 1517 a 1837. Recueil des notices et mèmoires de la société archéologique de La provincede constantine (constantine 1867) pp. 264-267.